غزة: بوصلة القلب

يوسف فارس

أجرت **الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية** هذه الحوارية مع الصحافي يوسف فارس، المولود في مخيم جباليا للاجئين الفلسطينيين في غزة في العام 1989 لعائلة لاجئة من المجدل، عسقلان. وهو صحافي وأستاذ للغة العربية وخطاط ورسام ومصمم غرافيتي وله عدة محاولات إخراجية. عمل مراسلاً تلفزيونياً في عدة قنوات تلفزيونية ثم رئيساً لتحرير "وكالة نبأ برس"، وفي إدارة الإنتاج في "المجموعة الفلسطينية للإعلام"، وكاتباً ومراسلاً لـ **الأخبار** اللبنانية منذ العام 2014، ومراسلاً لفضائيتيْ "المنار" و"الميادين". كما أخرج عدداً من البرامج المتلفزة والأناشيد والأفلام الوثائقية. غطّى الحروب المتلاحقة على غزة في الأعوام 2009-2023، وما بينها من معارك. ولا يزال يغطي أخبار غزة، وشمالها بشكل خاص، منذ "طوفان الأقصى" واندلاع حرب الإبادة على غزة في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، سواء بالتقارير اليومية، أو القصص المصورة للفضائيات أو الكتابة في الصفحات الإخبارية. في عمله النبيل في ظرف مستحيل، يبدو يوسف فارس، الذي آثر البقاء في شمال قطاع غزة منذ بدء الحرب، وكأن "وسادته من غبار المعارك" في تغطيته المستمرة وتنقله بين احتمالات الحياة الضئيلة واحتمالات الموت الثقيلة. وهذه الحوارية، التي أعدت في أواخر شهر آذار 2025، هي رحلة ذات مسارات متراكبة في أزمنة غزة وأمكنتها المستحيلة، وما تستدعيه من إحالات ممكنة عن: اللجوء إلى غزة، والشهادة عليها، والاستشهاد فيها، و"العودة" إليها، والبقاء فيها على قيد الأمل والحرية.

اللجوء إلى غزة

الجنوب: منذ صرخة الميلاد في مخيم جباليا وحتى اللحظة، لم يكف كابوس اللجوء، ومن بعده النزوح، عن ملاحقتك مثلما لاحق الأهل المكرهين على مغادرة المجدل والذهاب جنوباً في نكبة العام 1948. ولم يتوقف الأمر على اللجوء والنزوح، بل تجاوزهما نحو التدمير الممنهج للبنى الحيوية والمادية والرمزية التي من شأنها أن تدل على جريمة "إسرائيل" المستمرة والمتصاعدة من التطهير العرقي حتى الإبادة. كيف نشأتم على ثنائية كابوس اللجوء، وحلم العودة؟ وما هو مصير العائلة القادمة من المجدل-عسقلان الآن؟ وماذا حل بمكتبة الجد الأزهري الكريم (محمد) التي أودعها في المسجد العمري الكبير في مدينة غزة بعد تدميره في هذه الحرب؟

فارس: لم يكن اللجوء كابوساً، لأن فكرة الكابوس تقوم على تغيير حاد وجذري في الواقع القائم إلى ما هو أسوأ منه. اللجوء، كان الصورة الأولى التي وُلد عليها أبناء جيلنا. وسأزعم، دائماً، بأنها كانت صورة مشفوعة بالأحلام والرومانسية الثورية، فالفلسطيني عموماً، وخصوصاً من يولد في مخيم جباليا موطن البدايات، يفزع من فكرة الحياة دون أهداف سامية وأحلام جمعية كبرى يكون ساعداً على طريق تحقيقها. ودعني أكون صريحاً، فقد فكرت مرات عديدة في شكل الحياة دون احتلال و دون حلم العودة والتحرير، لماذا يعيش الناس؟ أو كيف يعيشون؟ بماذا يفكرون حين يصحون من النوم؟ وبماذا يحلمون؟

أعتقد أن من حق اللاجئ أن يسأل كيف يكون شكل الحياة العادية، لأن الذين يعيشون في وطن مسروق، سيكون من المفهوم أن نقدِّر كيف تكون حياتهم. اللاجئون، عموماً، يمتلكون دائماً حافزاً للعمل وتطوير الذات، ويعتقدون أن كل مسعى يحققه الفرد منهم على صعيده الشخصي، يصبُّ، في نهاية المطاف، في المصلحة الجمعية والحلم الكبير في التحرير والعودة. اللجوء يصبح كابوساً عندما ينفكُّ عن ثنائية الإيمان بالعودة الحتمية، والعيش في المخيم الذي هو صورة اللجوء الأكثر وضوحاً. ثم إن التعليم في مدارس الوكالة، يعني أن تسمع دائماً السؤال المتكرر: "إنتا شو بلدك؟" ثم يتلقَّف السائل الإجابة ويبدأ بالحديث عن صفات أهل المجدل، مثلاً. هذه التفاصيل الصغيرة كانت تعطي اللجوء السمة المؤقتة أمام ديمومة الحلم المنتظر، وكل مؤقت يُحتمَل أياً كانت قسوته، وكل مُنتظَر مشتهى وجميل، وإن طال انتظاره. أما عن العائلة التي هُجِّرت من عسقلان، فقد كبرت بعدما ربَّت جدتي أبناءها الأربعة من "حبَّات عيونها"، وكلهم معلمون، وأما الأصغر، نبيل، فطبيب تكفَّل بعلاج جدتي خديجة بعدما فقدت بصرها... قلت لك "من حبَّات عيونها"، تعبيراً حرفياً عن قدر الشقاء الذي عايشته وهي تصنع الجبجب من حليب الوكالة وتبيعه كي تؤمِّن رسوم الجامعات. وحيدة حملت خديجة العبء بعدما توفى جدي، بينما لم يتجاوز والدي السادسة من عمره، والمهم أن المهمة تمَّت. قال لي والدي إن إصرار جدتك على أن يتعلم الجميع، كان جزءاً من الانتقام الشخصي من الجهل بوصفه واحداً من العوامل التي ساعدت عدونا في تحقيق مشروع طردنا من الأرض في العام 1948. أما عن كتب جدي التي أودعها مكتبة المسجد العمري الكبير في غزة، فقد ذهبت إلى المسجد الذي تعرض للتدمير الجزئي خلال الإبادة، وبحثت مطولاً عنها، لم يعطني الخراب والحجارة الكبيرة التي ملأت باحة المسجد فرصة البحث الجاد. جزء كبير من الكتب مُزِّق وحُرق، وجزء آخر بقي. والحق أنني شُغلت في التأمل فيما تبقى من المسجد، عمره وتاريخه وأعمدة الكنيسة اللاتينية التي بنيت فيه والتي تشهد على بقاء غزة ورحيل العابرين على مدار الأزمنة. أن يبقى المسجد العمري بعد حرب إبادة كهذه، يعني أن نبقى نحن، يعني أن يعيش جدي وكتبه أبد الدهر، وهذا هو المهم.

الجنوب: في ظل التدمير الشامل بعد بدء حرب الإبادة في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كانت "الجهات" واحدة من ضحايا الحرب الكبرى، وقد استهدف العدو المكان والزمان والإنسان. كيف يمكن أن تصف حال ما جرى للجهات (شرق، وغرب، وشمال، وجنوب)، والتقسيمات التقليدية لجغرافية غزة الشريفة (شمال، وسط، جنوب)، وما حلَّ بها بعد اندلاع حرب الإبادة والصمود. ففي ظل التدمير الشامل والممنهج الذي اقترفه الاحتلال بحق المكان الأجمل، جنوب فلسطين وفي القلب منه غزة، تغايرت مفاهيم الجهات، ووصف إحداثيات المكان بعد أن تم تدمير المعالم الكبرى في

المدن والبلدات والمخيمات. كيف يسير الناس في أنحاء غزة، وهم ينوسون بين الموت والحياة؟ كيف يعرفون مواطئ أقدامهم وقد زالت العلامات؟ ينظر الراحل حسين البرغوثي إلى الجهات بوصفها "حالة ذهنية" أو "وهماً" في ظل غياب "العلامة". وفي غزة اليوم أبيدت "العلامات" التي يسترشد بها السائرون الأحياء ويدفن في جوارها المحمولون الشهداء، بفعل التدمير الممنهج. هل يعتمد الغزِّيون "بوصلة القلب" التي اقترحها الراحل مظفر النوَّاب للسير "في الرياح السيئة"؟

فارس: كان التحدي الأول في بداية حرب الإبادة، هو مقاومة التقسيم الجديد الذي فرضه جيش الاحتلال، حين ألغى المحافظة الوسطى وقسَّم القطاع إلى جنوب وادي غزة وشماله. خلال المائة يوم الأولى، تحوَّل شمال القطاع، وأقصد هنا مدينة غزة بأحيائها التاريخية العريقة والحديثة النابضة بالحداثة والحياة، إلى "أم الأولاد" التي يخشى الجميع فقدها، فقد كان المخطط يقضي بإفراغ الشمال من سكانه تماماً تحت مزاعم تحويل الجنوب إلى منطقة إنسانية. هنا، تحولت الجهات إلى غصَّة وحنين، غصَّة الألم أن يفقد الغزِّيون الشمال وهو قلب المدينة وتاريخها وحضارتها، والحنين الذي يعيشه نحو مليوني إنسان أجبروا على النزوح القاسي وظلت قلوبهم معلَّقة بالشمال ومن تبقى فيه من ذويهم. وفي وقت لاحق من إبادة طالت فصولها، تحوَّل الشمال إلى وطن والجنوب إلى منفى. فالغزاويون سواءً كانوا في أقصى شمال القطاع أو وسطه أو أقصى جنوبه، يتعمَّدون في غزة المدينة، وحين تتعرض المدينة لتهديد القضم والاحتلال، فهم يفقدون مغطس المعمدانية الذي يكسبهم هويتهم. الموجع في حكاية الجهات، هو البلدة القديمة بما فيها من تراث وشواهد تاريخية: كنيسة القديس برفيليوس، والمسجد العمري، ومقام السيد هاشم، وقصر الباشا... وأحياء عريقة ومعالم سياسية وحضارية، وضعت في مهداف التهويد، ويعني ذلك أن تنفي وجود حبل سري يربط الأم بأبنائها. لقد شعر الغزاويون جميعاً بثنائية الغصَّة والحنين، وارتبط كل شعور باتجاه من الاثنين، وقد ترجم استشهاد المئات من الشبان والنساء وكبار السن وهم يحاولون العودة إلى الشمال عن طريق شارع صلاح الدين الذي يقطعه حاجز "نتساريم" كيف هاجت تلك المشاعر وتأهلت.

أما الاتجاهات التي غابت وسط العلامات التي استحالت إلى ركام، وبعيداً عن أي تنميق رومانسي للمشهد، فتتجلى في عبارة شيخنا حسين البرغوثي في جباليا، كلما زرت المخيم يحضرني توصيفه. غير أن ما حدث في جباليا ليس تطوراً دخيلاً على شكل بيوت الصفيح أفقد العمران طابعَه السياسي والتاريخي، إنما هو هدمٌ كلِّي وطمس للشوارع الرئيسية والساحات والمساجد والمعالم التي كان وجودها يمثِّل سجلاً نضالياً وأرشيفاً حياً لمحطات فدائية بقيت شاهداً حياً على حكايتنا. كل شيء اختفى وطُمس تماماً في جباليا، تمشي في أخاديد شُقَّت وسط تلال من الركام، وتسأل من يحيط بك: "هذا شارع الهوجا ولا الترنس؟" وأهل جباليا، الذين يحفظون أزقة المخيم أكثر من أسماء أولادهم، يعرفون أن سؤالاً كهذا لا يسأله إلا مخبول. المهم، أنني ورغم الخراب الكبير، يسوقني الحنين دائماً إلى المخيم، في المرة الأولى كان مزعجاً أن تتوه وأنت ابن المكان، وفي المرة الثانية صار عذباً أن تطيع ذلك الدفء الشفيف الذي تشعره في قلبك وهو يقودك من مفترق أبو قمر إلى شارع الترنس. في كل مرة أكتشف أن الارتباط بالأماكن هو أمر يتجاوز العلامات المهدومة والاتجاهات المفقودة، إلى ما هو أبعد وأكثر عمقاً. سيقول لك كل من تراه عائداً إلى المخيم، وأتحدث هنا عن مخيم جباليا بوصفه نموذجاً لحالة عامة، إن هذا

التـراب جُبـل وخُضِّب بدمـاء أغلـى وأعز أبنائـه، وهؤلاء لـم يستشـهدوا كي نتركـه... حتـى ولـو خراباً. وبهذه المعـادلة الوجـدانية التي تتجـاوز الوقائـع المـادية، عـاد الآلاف وبنـوا خيامهـم وسـط غـابة من الـركام، وبقي المخيـم المهـدَّم وجـهة لأهلـه الذين لا يكتمـل يومهـم دون العـودة إليـه ولـو بضع سـاعات.

الشهادة على غزة

الجنـوب: قبـل عشـرين عامـاً، تنـدَّر الراحـل محمـود درويش، قـائلاً: "لـم أكن واقعيـاً، ولـكنني لا أصـدق تـاريخ إليـاذة العسـكري. هـو الشـعر أسـطورة خـلقت واقعـاً... وتسـاءلت: لـو كانت الكاميـرا والصحـافة شـاهدة فـوق أسـوار طـروادة الآسيـوية، هـل كان هوميـر يـكتب غيـر الأوديـسة؟" لـم يـعش درويش طـويلاً، ليحسـم شـكل الكتـابة الأنـسب بين الشـعر والتـاريخ، وليشـهد علـى الكاميـرا المتهمة باللاسـامية علـى أسـوار غزة وقـد تلـطخت عدستهـا بـدم الفلسـطيني حتـى قبـل أن تشيـر إلـى جـهة القذيفة الإسبـارطية التي ستكـون الكاميـرا وحاملهـا الهـدف التـالي لأختهـا القذيفة. في وجـه هذا التـوحش، تجـاوز صحافيـو غزة التقسيمـات الفئـوية للعامـلين في مـهنة المـوت والحيـاة، وصراعات السيـاسة التي لا سيـاسة فيهـا، وهـم يفضحـون جرائـم الغبـاء البشـري والذكاء الاصطنـاعي اللـذين وظَّفهمـا الاحتلال لاستهـداف جسـد الضـحية الفلسـطينية البـليغة التي ترصـد مـوت جسـد الـحقيقة وحيـاة قصتهـا. وهذا يذكرنـا بمـاضي "الإعلام الفلسـطيني الموحَّـد"... لمـاذا نجـح إعلام غزة وهـو تـحت الإبـادة المباشـرة، وأخفق الإعلام خـارج غزة فلسـطينياً وعربيـاً وعالميـاً؟

فارس: دخل الجيش النازي إلى غزة وقد وصم الذكور من أصغر طفلٍ فيهم حتى أكبر مسن بتهمة "مقاتل غير شرعي"، وعليه تحوَّل الشهود إلى متَّهَمين وضحايا مؤجَّلين، فقد أخذ الجنود "الإسرائيليون" تعليمات واضحة بأن يكونوا مثل "الفيَلة في متجر الفخار"، أي أن يدمروا كل شيء. لقد وجدنا أنفسنا نروي حكايتنا نحن في وجوه عديدة، ماذا سيقول ضيوفنا أمام عدسات الكاميرا، إنهم فقدوا المنزل وعشرون من أعزاء قلوبهم قضوا في مجزرة جماعية عائلية؟ أم أن أبناءهم ينامون جياعاً؟ كل ما سبق تجرَّعه من يحمل الكاميرا. حين بكت أم فوزي وشح أبناءها الأربعة وزوجها الذي لحق بهم بعد ثلاثة شهور من المجزرة، شعرتُ بدموعها تجرح خدي. أبناء أختي الثلاثة حفظوا **القرآن الكريم** كاملاً، وكانوا من المتفوقين في دراستهم وقد قتلوا بذات الطريقة. ألا يكفي هذا التطابق المذهل بين الشاهد والضحية أن يجوِّد من مستوى التغطية ونسقها! وإلى جانب ذلك التقاطع الشخصي، تطورت مهمة الصحافيين، في وقت لاحق، إلى ما يتجاوز نقل المشهد الحقيقي لحرب الإبادة، إلى تخليد حكاية شعب ومجتمع مهدد بأن يلقى مصيراً مشابهاً لمصير "الهنود الحمر"، لأن العقلية التي تقود التوحش وتخترع أساليبه واحدة. صار للصحافة دور المحافظة على الكينونة وتخليد الهوية الحضارية وصناعة الرموز الأيقونية التي تحمل على كتفها الحكاية إلى عوالم ولغات وأجناس البسيطة. كل شيء تبدأه الصحافة: حملات التضامن، وجلسات المحاكمة في محكمة العدل الدولية، وحملات المقاطعة، والجيل العربي الذي سيتعرف على الوحش الذي أجبر على العيش بجانبه... الخبر هو بداية كل شيء. ويبدو لي أن مستوى التهديد وحدَّته ساهما في تجويد سبل مواجهته، والخطر الوجودي وقت المقتلة الجماعية ذوَّب كل الفوارق السياسية والفئوية وأخرج الطاقات الكامنة والقدرات الدفينة، وتحوَّل التوثيق والعمل الصحافي، بالنسبة للزملاء، إلى متراس البقاء في مواجهة الزوال والتغييب.

الجنوب: من المعروف عنك أنك ترفض نسب سمة البطولة إلى نفسك أو إلى زملائك الصحافيين في عملكم النبيل، وهذا موضوع لافت. في غزة ليس لديكم ترف خوض النقاشات القديمة حول مقولة: "تعيسة بلاد لا أبطال فيها"، والرد عليها أن "تعيسة بلاد بحاجة إلى أبطال". ولكنكم توازنون بين المقولتين: فمن ناحية، تؤمنون بضرورة العمل كأبطال دون أدنى رغبة في نسب فعل البطولة إلى أنفسكم. ومن ناحية أخرى، ترون أن موقعيَّة البطولة قد فُرضت على غزة ومقاوميها وصحافييها، وأطبائها، ومسعفيها، وعمالها، وأهلها... وبالتالي، فإن البطولة حاضرة في توكيد واقعها رغم نفي الرغبة فيها. في ظل الدعوة القديمة إلى "تفكيك البطل"، ومقولة إن "البطل ملَّ من دوره"، والرغبة المحمومة للفلسطينيين الراغبين في أن يعيشوا كأناس عاديين في زمن عادي، لا أبطال ولا ضحايا... كيف يمكنكم أن تكونوا أبطالاً عاديين وضحايا محتملين؟

فارس: ما أرفضه على وجه التحديد، هو أن يزاحم الصحافي أبطال قصصه وأخباره على الصورة والبطولة، وهو نقاش مهني ممتد وطويل ومحلُّ جدل، إذ ليس من المنطق ولا المقبول حين أتحدث عن بطل بحجم المزارع يوسف أبو ربيع الذي زرع أرضاً لم تكد تغادرها جرافات الـ"دي ناين D9"، وحرَثها وبذَرها وسَقاها وحَصد ثمرها في ذروة المجاعة تحت سماء من بارود، أن تنزاح البطولة من يوسف أبو ربيع إلى مصور القصة أو كاتبها. أنا أدافع عن حق ومساحة الأبطال الحقيقيين فحسب، لأن كل حظوة يمكن أن ينالها الصحافي سببها بطل الحكاية، ما يعني أن ضيوف القصص والضحايا هم من يصنعوننا وليس العكس. وقد كان مهماً خلال حرب تحاول اقتلاع الوجود، أن نعيد تجليس المفهوم التقليدي للبطولة بوصفها رتبة تُعطى للمقاتل و يتكرر منحها للأطباء والصحافيين ورجال الدفاع المدني وضباط الإسعاف فحسب، لأن كل من رفض التهجير من شمال القطاع كان بطلاً منفرداً من مجموع بطولي: عامل النظافة الذي واصل تنظيف الشوارع رغم تبدد الجسم الإداري للبلديات وانعدام المساءلة، كان بطلاً جديراً بالإشادة، والأمهات اللواتي فُرض عليهن أن يعدن في مستوى الحياة الحضارية إلى العصر الحجري، وحتى الباعة الذين سارعوا إلى بناء مصالحهم فور انتهاء العمليات البرية في المخيمات والمدن... كل أولئك وغيرهم أبطال حافظوا في ذروة حرب الاقتلاع والتهجير على البقاء والوجود، وأدَّوا أدواراً مهمة في صناعة الأمل وتثبيت الناس. ما حاولت قوله دائماً، إن الصحافيين، وأنا واحد منهم، يحصلون على تقديرهم وهم يؤدون دورهم الوظيفي، ثم الأخلاقي والوطني تجاه ناسهم، وكان مهماً أن نعيد صياغة فكرة البطولة في حرب الإبادة، لأننا إزاء عدوان مختلف بأهداف مختلفة.

الجنوب: من باب المسؤولية المهنية والأخلاقية والوطنية، بقيتَ في شمال غزة على الرغم من كل حملات الترهيب والتهديد المباشر المشفوع بأفعال آلة الإبادة "الإسرائيلية" وشركائها. ولك مقولة في غاية التوازن الروحي والنفسي بخصوص ذلك. فأنت لم تترك الميدان وفاءً لأخلاقيات المهنة، ولكنك تنفي البطولة عن نفسك وعن زملائك الصحافيين، وقد امتحنكم الزمان. ومن أبسط معاني البطولة إبطال ما يستطيعه الآخرون، إذ لم يستطع الكثيرون البقاء (وذلك حقهم، وربما واجبهم في الحفاظ على حياتهم وحياة عائلاتهم). فأنتم أبطال حتى بالضرورة اللغوية، وإن لم يحمِكم سلاح اللغة، ولا شارة "صحافة Press" التي تحملونها على صدوركم وظهوركم ورؤوسكم. أليس كذلك؟

فارس: المعادلة التي أجبرتني على البقاء والعمل، هي أن كل ضحية وحكاية لن توثقها أنت ستندثر

وكأنها لم تُقتل، وكان عدد الزملاء الذين بقوا في شمال غزة لا يتجاوز في أشهر الإبادة الأولى أصابع اليدين. لقد فقدت خليل ومحمد وحمزة، أبناء أختي إيناس، وكان خليل كوكباً، بل عالَماً، وحين قرأت خبر استشهادهم إلى جانب الرقم "ثلاثة أخوة ووالدهم"، شعرت كم هو مؤذٍ أن يُختزل الإنسان بكل عواطفه المعقدة وطموحاته وعذاباته في رقم بارد. وحينما تكون مهمة تحويل الأرقام الباردة إلى قصص حية خالدة بكل هذه الأهمية والقداسة، وتتكاسل أو تؤثِر السلامة، فأنت لا تخون المهنة التي رفعتك طوال عمرك مادياً واجتماعياً فقط، إنما تخون عقدك الشفهي وغير المكتوب مع الناس جميعهم، أولئك الذين ساهموا في صناعة مكانتك. وحتى أكون صادقاً، فقرار البقاء في الشمال لم يتخذ بشكل قاطع في اللحظة الأولى، بل كان نتيجة صراع طويل مع الذات تخللته ساعات ضعف وتردد، ونقاشات مع الأصدقاء والعائلة، وحتى المؤسسات التي كنت مرتبطاً بالعمل معها طلبت مني الخروج من الشمال إلى الجنوب لعدم توفر الأدوات اللازمة لإتمام العمل، من كهرباء وإنترنت. وقد كانت عقدة وصم الضحايا بالأرقام الباردة تحاصرني.

ما سبق لا ينفي أن المبالغة في تظهير فكرة البطولة في بعض الأحيان تسلبنا صفاتنا البشرية العادية، مثل الخوف والتردد وحب الحياة، وتعطي الآخر مبرراً لعدم الفعل على اعتبارنا من طينة مغايرة لطينته، فيما الواقع، أننا عشنا الخوف مربَّعاً. لكن "الخوف ليس هو الجبن" كما قال فيصل حوراني في رواية **المحاصرون**. "الجبان قد يهرب حتى حين لا يوجد ما يخيف، أما غير الجبان فخوفه مما يخيف يحفزه للاستبسال في مواجهته." وأكثر ما يخيف في حرب إبادة كهذه، كان الغياب، أن "تُنسى كأنك لم تكن"، على صعيدي كشخص، وعلى صعيدنا كجماعة وشعب. صدقني، أننا لسنا نبلاء ومسيحيين بالقدر الذي تعتقد، هناك دافع شخصي يتعلق بفرضية أن تنجو من الإبادة وقد رسبت في الاختبار أمام الذات والمهنة والمجتمع والضحايا، وحينئذٍ، ستعيش حياة مزيفة في كل شيء، ستقتلك الردَّة في كل صباح تضطر فيه للنظر إلى وجهك في المرآة.

الجنوب: تصرُّ على عدم التفريق بين الواجب الإعلامي لمهنة الصحافة والواجب الإنساني في البقاء مع الناس على مُرِّ الحياة، وقد غادر غزة حلو الحياة حتى إشعار آخر. وفي ذلك الإصرار النبيل نلمح رسالة مدوية، رغم "انتحار المنطق والأخلاق"، رسالةً إلى العدو و"مجتمعه" ومن يصطف معه في العالم، مفادها أن هؤلاء "يجب أن يفهموا أن المقاوم هو ابن الشتات وابن النزوح وابن هذه المعاناة. والذين يقاومون هم أبناؤنا، لذلك محاولة الفصل بين الجانب المقاوم وبين معاناة النزوح أو تقديم جزء على آخر، فيه مضرَّة كبيرة لصورة الفلسطيني ولحقيقة واقعه في قطاع غزة."

فارس: تظهر أحقيَّة سلوكنا، نحن الفلسطينيين، دائماً حينما نعيد الصراع إلى البدايات. وفي لغة البدايات التي يحاول العالم أن يمحوها بالتقادم، هناك شعب طُرد من أرضه من قبل غرباء. أبناء هذا الشعب هم ضحايا، وأكبر ضحايا "إسرائيل" هم المقاومون بالسلاح، الذين أجبرهم هذا الاحتلال أن يسلكوا مساراً مغايراً للحياة الطبيعية التي يعيشها صنوهم من البشر في أي مكان من العالم. أليس من يضحي بزهرة عمره وشبابه ويستشهد على طريق تحقيق حلم الحياة الكريمة لشعبه وأهله، ضحية هذا الاحتلال؟

غزة ليست الموصل التي دخلتها جماعة أبو عمر البغدادي وحكمتها بالنار والسلاح. وكل محاولات

تشويه العلاقة الأصيلة بين المقاوم ومجتمعه، على افتراض أنه من الممكن أن يدفع من قاوم ضريبة فعله ويُنفى من البلاد، هي تعامٍ عن الحقيقة الأصلية بأن الذين يحملون السلاح هم أولادنا. لم يعيشوا حياة أفضل منا، لا قبل الحب ولا خلالها، ودَفعوا الضريبة مربَّعة. وعلى طريق تثبيت هذا الحق، كان مهماً أن يُعاد تكريم المقاوم في الصحافة المسؤولة، بوصفه أرفع وأسمى إنسان في المعركة المحتدمة بين التوحش القائم على السرقة والاضطهاد والاغتصاب، والحضارة القائمة على التمسك بالحقوق والدفاع عن الحياة.

الجنوب: بالتزامن مع استهداف "إسرائيل" الجسم الإعلامي بكوادره البشرية، ومعدَّاته التقنية، وبناه التحتية... أخرجت كل وسائل الإعلام الأجنبية، وفرضت حظراً على دخول الصحافة العربية والعالمية إلى غزة ليكتمل ليل الجريمة. لكن هذا، ربما، أناط تشكيل الرواية في الميدان داخل غزة بالصحافيين الذين نجوا من الإبادة، رغم أن ماكينة الدعاية الصهيونية والعالمية تتفنن في لوم الضحايا بغض النظر عن تفاصيل الرواية ومصدرها. كيف تنظر إلى هذه المسألة؟

فارس: إحدى نقاط الفراغات التي لم يحسن أحد ملأها خلال الحرب وبعدها، هو تعثُّت الاحتلال في إدخال الصحافة الأجنبية إلى القطاع، وذلك لأننا في عالم أعور يشكِّك دائماً في صدقية الصورة التي ينقلها الصحافي الذي أضحى ضحية. وقد مارس جيش الاحتلال الجريمة بتبجح وصلف وتفرُّد وظهر محمي. في اعتقادي أن حجم الإبادة والبشاعة كانت أكبر من قدرة أي صحافي أياً كانت أجنداته على تعويمها وتمييعها، وإزاء ذلك، كان ممكناً لحضور الصحافة الأجنبية أن يصنع فارقاً.

الاستشهاد في غزة

الجنوب: بعد ستة أشهر على بداية الحرب، كتبت نصاً عن الرجال والخيول، قلت فيه: "لا شيء يفسر حالات الموت المفاجئ في خيام النازحين ومراكز الإيواء، لرجال لا يعانون طبياً من أية أمراض عضوية، إلا ما حكاه لي أحد الأصدقاء اليوم، عن خيول عربية سُرقت من إسطبلات نوادي الفروسية في شمال القطاع ووسطه، ووقعت بيد من لم ينزلها منزلها: شدُّوا عليها العربات، واستخدموها في النقل والحمل، أهانوها بالضرب، أسكنوها مناطق قذرة لا تليق بمقامها... فماتت، "فقعت... طقَّت، وماتت"، قال صديقي! يموت الناس فجأة، مثل الخيول الأصيلة تماماً، رجال أعزاء قهرتهم هذه الحرب، فقدوا مصادر رزقهم ونمط حياتهم الكريم الهانئ، فقتلهم الغمُّ، شباب برائحة الياسمين وأناقة نجوم السينما، يقضون اليوم نصف نهارهم في جمع الحطب وحمل الماء والبحث عن الرمق. يتفاوت البشر في قدرتهم على تحمُّل الأعباء، يتوارى البعض عن العيون، ويبكي، ويعجز آخرون عن البكاء "بيفقعوا... وبيموتوا". هكذا بمنتهى البساطة والتعقيد! سيمضي هذا الوقت يا أهلي... يا أعزَّ الناس وأكرمهم وأشرفهم "لسنا سوى غيمٍ تعفَّر بالتراب". وتأكيداً على قوله، فهذه الحادثة حصلت اليوم، يخبرني بها ابن عمتي حقيقة أنه في غزة الناس تموت قهراً والله..."

يعيدنا هذا النص إلى مقولتين: الأولى، لوليد دقة في "الشهداء يعودون إلى رام الله"، بأن "الموت يمكن أن يكون حصاناً حتى يجرَّ عربة الحياة"، قبل أن يستشهد، كما رأينا خيول غزة بأم أعيننا،

تستشهد حقيقة لا مجازاً وهي تجرُّ عربة الحياة. والثانية، لأمل دنقل في قصيدة "الخيول" التي تتطابق مع مقولتك، حيث جفَّ صهيلها، وتغيَّر بها الحال بعد أن كانت "تتنفَّس حرية مثلما يتنفَّسها الناس في ذلك الزمن الذهبي النبيل"، وإن لم تلن لسوط المروِّض. في نهاية القصيدة، يحثُّ دنقل الخيول على أن تركض أو تقف "في كل درب يقودها إلى المستحيل"، لأنه تتساوى محصلة الركض في الأرض، للقرار أو للفرار، في ساحات المراهنة الدائرية، بعد أن اعتلتها المرأة الأجنبية في "ساحة أبي الهول الذي كسرت أنفه لعنة الانتظار الطويل". أي نوع من الخيول في غزة تتحدث عنه: الخيول التي تجرُّ عربة الحياة، أم الخيول التي تجرُّها عربة الموت؟

فارس: يصعب تعويم الأحكام المطلقة، وليس من حقي سكب التباين البشري المجتمعي في لونين فقط، وذلك لأننا في حالة دائمة من التقلُّب المزاجي والمعنوي والشعوري وإن حاولنا الظهور بالثبات، غير أن الحكم المطلق الوحيد في المشهد الغزاوي، هو أننا "الخيول الأصيلة"، وإن كانت متعبة وجريحة ودامية القدمين. المهم أن يحسن الواحد منا تقدير نفسه بمعزل عن الظروف الطارئة، فالتمسك بالنظرة العالية للذات الجمعية هو ما يحفظ الكرامة ويحافظ على سوية منظومة السلوك. نعم، يتجرَّع الغصَّة الكثير من أبناء المجتمع حينما يقارنون حياتهم بما كانت وأصبحت، يموت بعضهم قهراً حينما تتجاوز الظروف قدرة تحملهم. لكن حتى الموت في حالات كهذه، هو مؤشر انتصار على محاولات تطبيع الأهالي مع الإذلال، عبر سحق الكرامة البشرية التي أمعن الاحتلال في ممارستها، من خلال التجويع والترحيل وهدم المنازل وتدمير الأرزاق. في ظني أن الخيول حين تموت قهراً، تقدِّم أبلغ رسالة احتجاج ورفض تجاه الواقع القائم، وتعطي حافزاً للآخرين للتمرد على أسباب القهر التي تفضي إلى الموت، ما يدفع بالضرورة عجلة الحياة والبقاء، لأن الذي يحسن الرفض، يتمسك بمستوى انتقائي لشكل الحياة التي يرغب أن يعيشها، إذ ليس المهم أن تعيش في هذه الدنيا، المهم أن تعيش كما تشاء.

الجنوب: بعد قرابة عام على بدء الحرب، قلت: "منذ أكثر من عام أكتب بشكل يومي مقالاتي في جريدة "الأخبار" وعدد من المواقع الأخرى. كتبت وسجَّلت وصوَّرت مئات القصص الإنسانية والجولات الإخبارية. خرجت بالمئات من التقارير والتغطيات المباشرة. وحين أجول في ذاكرتي وأحاول استذكار أهم ما أنتجته، لا يخطر في ذهني إلا عبارة واحدة كتبتُها في شهر الحرب الأول: "الشهادة هي ترتيب الله الجميل لشكل النهاية... اللهم رتب لنا خاتمتنا على أجمل ما تريد." على الرغم من أهوال الحياة والموت في غزة، هذه عبارة ثقيلة في وصف "رفقة الموت" التي طالما تغنى بها شعراؤنا الشعبيون مثل الراحل إبراهيم صالح "أبو عرب". سؤالنا ليس عن مزاملة الموت في طريق البحث عن الحياة، بل عن إمكانية وصف "يوم عمل" خلال الحرب. كيف يبدأ النهار وكيف ينتهي؟ وكيف يبدأ الليل وكيف ينتهي... وقد طال ليل غزة وليل فلسطين؟

فارس: في الحرب، أنت تعيش حالة دائمة من الترقب، لديك دائرة واسعة من الأقارب والأصدقاء والجيران الذين تخشى خسارتهم، وتدرك أن ثواني الإبادة منجل نشط لا يمل حصاد السنابل، والترقب هو الأذى الأكبر. أما العمل، فهو مساحة الهروب الأكثر أماناً من قسوة التفكير والهواجس. وقد تعمَّدت طوال الحرب، استنزاف طاقتي القصوى في العمل إلى أبعد مدى. كان يومي يبدأ في ساعة مبكرة من النهار، أخرج من مكان النزوح، مشياً على الأقدام رفقة زميلي المصور محمد بعلوشة، نحدد في

الطريق جدول المهمات المطلوب إنجازها، ونبدأ في قطع مسافات طويلة جداً، عشرة كيلو متر مشياً، أقل أو أكثر قليلاً، والسير على الأقدام لم يكن رغبة بل واقعاً أجبرتنا عليه ظروف انقطاع الوقود وتوقف المركبات. كانت تلك نقمة على الجسد تستبطن النعمة في المهنة، فمن جهة فقدت 40 كيلو غراماً من وزني خلال ثلاثة شهور، أي حققت ما فشلت في إنجازه خلال 20 عاماً من الريجيم والأنظمة الغذائية ههه! ومن جهة أخرى، كنت قريباً أكثر من الناس، أمشي وأسمع القصص، أنتقي منها المناسب لإنجازه مصوراً، وأخزن التفاصيل في ذاكرتي للكتابة. ثم تطور الأمر، وصار الأهالي والفاقدون يسألون عن مكان سكني ويأتون إليَّ لإنتاج حكاياتهم، وأنا أعترف أني ممنون للشقاء والتعب والسير الطويل على الأقدام لعشر ساعات أو أكثر في اليوم.

وحين أعود منهدّاً قبل مغيب الشمس، تبدأ معركة أخرى في البحث عن نقطة إنترنت لإرسال المواد المصورة للقنوات التلفزيونية التي أعمل معها. من حظي أيضاً أنه لم يكن هناك مسلّيات ولا طعام يستهلك الكثير من الوقت، المتوفر هو القليل من الأرز المطهو على الماء أو الخبِّيزة والعدس في حالات السعة والفرج. في غضون أقل من ساعة ونصف كان عليَّ يومياً أن أتدبر مهمة البحث عن الإنترنت وآكل ما تيسر وأصلي الفروض ثم أجلس قبالة اللابتوب لإنجاز تقاريري اليومية في صحيفة **الأخبار.** وعادة ما كنت أنام على لوحة المفاتيح وأنا أكتب التقرير الثاني، ثم استيقظ على مكالمة هاتفية من ديسك التحرير تعلن أن الجريدة على باب المطبعة وتنتظر المادة الثانية. وحينما أفرغ من الكتابة، تتاح لي الفرصة أحياناً لشرب القهوة مع والدتي ووالدي قبل أن يتملَّكني التعب ويغلبني النوم. وفي ساعة متأخرة من الليل، كنت أقوم دائماً لأتأكد من وصول المواد المرئية للقنوات الفضائية. في ذلك الحين من السحَر، كانت تصلني مجموعة من الصور الفوتوغرافية المقتنَصة بعناية فائقة أثناء التصوير. محمد كان جزءاً مهماً من كل شيء، بل كان البطل الخفي في كل لحظة خالدة. لست أدري كيف كانت تكتب القصص نفسها على مواقع التواصل الاجتماعي، وكنت أفاجأ دائماً بعدما أنهي يوم العمل التالي من الصدى الذي تحققه تلك القصص. هكذا ينقضي اليوم ويبدأ آخر، إذا لم تحدث مفاجأة، والمفاجآت في الحرب هي الروتين اليومي للأيام، قصف هنا أو مجزرة هناك أو استهداف قريب منك، استدعاء لخروج مباشر من القناة... الفكرة هي أن أيام الحرب وأحداثها هي التي ترتب نفسها وليس نحن من يرتبها.

الجنوب: في غزة يعزِّي الناس أنفسهم وأبناء شعبهم وهم جميعاً في دائرة الاستهداف والموت، ولا يأبهون بالتحرز من الموت لأن "المنطق انتحر في غزة"، كما تقولون، بفعل جنون آلة التوحش وإرادة الإبادة الصهيونية. بمعنى أن احتمالات النجاة تتضاءل أمام احتمالات الشهادة، وليس ثمة داعٍ للحذر الإضافي. هذا الانتحار للمنطق يبدو متمِّماً للمنطق الإيماني بأن "الأعمار محكومة بالآجال". كيف يتبادل هذان النوعان من المنطق الأدوارَ خلال وجودكم في حالة بينية دائمة في رحى الحياة والموت؟

فارس: الناس في غزة كانوا شهوداً على واقعية هذه الآراء العقدية. ينتحر المنطق حينما تتحول المنازل إلى قبور، ويضحى خطراً أن تجلس في منزلك، الذي تعتقد أنه آمن، أكبر من تنقُّلك اليومي في الطرقات والشوارع، فأكثر الضحايا في الحرب استشهدوا في منازلهم وسط عائلاتهم وبمعيَّة ضحايا آخرين في مربعات نسفت بأكملها بدون أي داعٍ عسكري. ينتحر المنطق فعلاً حينما نشاهد بأم

العين أن منزلاً قصف بصاروخ "جي بي يو GBU" من طائرة حربية، قضى على كل سكانه من الأطفال والنساء والشباب، ولم ينجُ منه سوى مسن بلغ الثمانين من العمر. وأن عشرات الآلاف من الذين نزحوا من شمال القطاع خشية أن يقتلوا في العمليات العسكرية البرية، قضوا شهداء في المناطق الآمنة في جنوب القطاع. وأن مقاومين كثر التحموا بشكل مباشر مع الدبابات في كل واقعة توغل، لا يزالون أحياء يرزقون حتى اليوم... فيما قضى طفل بشظية وهو في حضن والدته. كيف سأقتنع، إزاء حالات وشواهد تتكرر يومياً بهذه الطريقة، بالفرضيات التقليدية عن الأمان، مثل: مَن يلزم منزله يسلم، وأنَّ التقدم في العمر يدني صاحبه من الموت؟ هكذا تتضاءل فكرة التمسك بالحذر، وندرك جميعاً أن حارس العمر الأجل، وأن لكل شيء حقيقة: "وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه."

الجنوب: تعددت طرق القتل التي استخدمتها آلة التدمير وإرادة الإبادة الصهيونية، من طرق القتل المباشر بالصواريخ والقذائف والرصاص، إلى الحصار المعلن بهدف الإبادة، بما في ذلك قطع الكهرباء والماء والغذاء والدواء، وإلزام الناس على البقاء في العراء بلا مأوى بعد تدمير بيوتهم، وحملهم على النزوح إلى مناطق يعلن عنها بأنها "آمنة"ومن ثم يتم قصفها. من خلال وجودك في شمال غزة، الذي عانى مرارات الجوع والخوف، كيف تعامل الناس مع هذه الميتات في حياتهم؟ كيف واجهوا القتل بكافة أشكاله؟ كيف واجهوا المجاعة باستهلاك علف المواشي؟ وكيف واجهوا النزوح إلى لا مكان بترميم الخيمة المتهالكة؟

فارس: يعزِّي الناس أنفسهم بمصائب غيرهم التي تتجاوز حجم مصيبتهم، فالذي فقد ولداً من أبنائه، لديه جار فقد أولاده جميعهم، والذي بُترت له ذراعاً سيشاهد على سرير بجانبه من فقد ذراعين وقدم، والذي هُدم منزله يحمد الله على سلامة جسده وعائلته... هذه حيلة التعزِّي بأهل البلاء تنجح دائماً في التخفيف من وطأة المصائب. لكني وجدت من أخذوا حصةً من كل المرارات، من تجرعوا هدم البيت ثم فقد الأولاد، ثم الإصابة والاعتقال، وعايشوا الجوع والفقر... هؤلاء، ستتعجب من قدر الإيمان والتسليم بل والأمل الذي يمتلكونه لتجاوز مصائبهم: "الله قبل ما يبتلي بيعين" وهي عبارة مشهورة في غزة، فيها قدر كبير من الإيمان بإنصاف الأقدار. أما الجوع، فهو الفصل الأقسى من عمر حرب الإبادة. رأيت كثيراً من الرجال الأعزاء، لم تذرف لهم دمعة بفقد حبيب وعزيز، لكن عزة نفسهم لم تحتمل سؤالاً من مثل: "شو تغديت اليوم يا عم؟" وذلك لأن الجوع ظل في العُرف الاجتماعي سُبة: "يا جعان يا ابن الجعان!" هكذا يشتمُ الغرماء بعضهم. الغزاويون كرماء جداً وأعزاء جداً أيضاً، لا يَرِدُون غذاء عاماً في مناسبة زواج أو نجاح دون أن يتلقوا دعوة خاصة، ولا يأكلون من الطعام إلا أشهاه وألذَّه. هذا هو نمط حياتهم قبل الإبادة، وقد جاء الجوع حالة شاذة لم يألفوها ولم يقبلوا تأثيرها على منظومة السلوك. ولذا، يبكي الرجال ويجرحون. لكن هذه البلاد مباركة، فقد تجاوز الناس كل النوائب، أو يحاولون الظهور بأنهم تجاوزوها، وكانت يد الله الكريمة تربت على أكتافهم في ساعات العسرة. وقد أبدلنا الله دائماً عقب خوفنا أمناً، وبعد جوعنا شبعاً، ومر كلُّ شيء على أنه وقت مستقطع من مسيرة الدهر. وبهذا الأمل واليقين يمضي كل شيء.

الجنوب: شهدتَ على اعتقال المئات، بل الآلاف، من الناس غير المقاتلين بوصفهم "أسرى بلا

جِـراب." كيف تحـوَّلت السـاحات العـامة، والمـرافق، كملـعب اليرمـوك والمستشفيـات، إلـى مـراكز تـحقيق؟ كيف ذابت الفـوارق بين أمـكنة الحـرية وأمـكنة الأسـر؟ كمـا شـهدتَ علـى مئـات المجـازر، وغـطِّيت تـدشين عشـرات المقابـر الجمـاعية، وتدميـر مئـات التجمعـات السـكنية. كيف تلاشت الفـوارق بين أمـكنة الحيـاة وأمـكنة المـوت؟ وكيف احتمـلت غزة ولا تزال كل هذا الإربـاك لأنظـمة الحيـاة والمـوت؟

فـارس: تلـك المفارقـات صنعهـا العـدو متقصـداً ومتعمـداً وتتجـاوز فـرضية المصـادفة: صـالات الأفـراح حوَّلها إلـى مـراكز تـحقيق وتـعذيب، والـملاعب الخضـراء إلـى مـعتقلات مؤقتة، والمستشفيـات التي يـلجأ إليهـا النـاس لينجـو من المـوت، إلـى أكثـر المـرافق التي شـهدت المجـازر الجمـاعية. في حيِّ الفالوجـا، تقـدَّمت الدبابـات في اجتيـاح جباليـا الثـاني في شـهر أيـار، وهـدمت السـور الفاصـل بين المقبـرة ومنـازل النـاس والشـارع، وكان لـكل ذلـك تأثيـره المعنـوي والنفـسي، أي لـم يمـر أي حـدث من تلـك دون أن يتـرك نـدبة وحسـرة تعبـر الأزمنة. لـست من الذين يفترضـون بأن غزة استطـاعت تجـاوز كل تلـك الـمآسي، لقـد مـرت اللحظـات القـاسية نعـم، لـكن الإبـادة بـكل فصولهـا يجب أن تبقـى حية بوصفهـا مراسـاً وحشيـاً يستـلزم التخليـد في ذاكـرة الأجيـال والعصـور. مهـم جـداً أن يتحـول هذا الـحزن الـمخزون إلـى طـاقة فعـل وإرادة سيـاسية للتغييـر والنضـال. مهـم جـداً أن تـحتفظ الأمـاكن بذكرياتهـا المريـرة. أن يعلـم كل طفـل المـكان الذي شـهد يُتمـه. وأن يـروي كل محـرر من الـسجن ظـروف اعتقالـه لأولاده وأولاد الحـارة أيضـاً... لأن التطبيـع مـع الظلـم والطغيـان يجعلـه عاديـاً، ويحوِّلـه إلـى عقـد ذاتية غيـر منجزة، وفي حـالات الشـعوب والأمـم الـحية، يتحـوَّل الظلـم إلـى طـاقة ومخزون للفعـل النضـالي المستـدام، قـد يطـول بعثـه بالنظـر إلـى الظـروف القائـمة، لكنـه لا يمـوت أبـداً.

"العودة" إلى غزة

الجنـوب: قبيـل وقف إطلاق النـار الأول، في تشـرين الثـاني/ نوفمبـر 2024، كنتـم قـد أخفيتـم عن الوالـدة الكريـمة خبـر استشـهاد أبنـاء أختهـا، وعـرفَت بالخبـر خلال تنفيذ صفقة تبـادل الأسـرى الأولـى. كان عزاء الوالـدة في إطلاق الأسـرى، وسألت عن أحمـد مناصـرة، الذي أخبرتموهـا أنـه شبَّ في الأسـر ولا تنـطبق عليـه صفة الطفـولة. أحمـد مناصـرة "مش متذكِّـر"، كمـا كان يـردد في التـحقيق، ولـكن النـاس في غزة يتذكرونـه... من أين تأتي هذه الـصلابة في ضـم الـكف الفـردي علـى هذا الجـرح الجماعي الكبيـر، ومنـح فـرصة للأفـراح الصغيـرة بـوقف عابـر لإطلاق النـار، أو إطلاق سـراح الأسـرى في القـدس والضفة الغـربية، ولاحقـاً في غزة؟

فـارس: لـست أدري. مـا صـرت مقتنعـاً بـه أن لغزة وناسـها سـرَّهم، الذي يضعهـم دائمـاً في قـمة التجـرد من الذات والانتمـاء لهمـوم المجمـوع. حينمـا نفذت المقـاومة عمـلية "طوفـان الأقصـى"، كانت ظـروف الحيـاة في القطـاع مثـالية كما لـم تـكن طـوال 20 عامـاً، وكان من الجنـون أن يفـرِّط أحـد بحـالة استقـرار مـادي ومدخـول نقـدي كبيـر علـى تلـك الشـاكلة. وحتـى اليـوم، لا يزال الجميـع يبحثـون عن السـرِّ والدافـع والحـافز الملـحِّ الذي قـاد إلـى تضـحية كـهذه. كمـا لا زلت أبـحث عن حـدود قـلب أمي التي تذكَّـرت أحمـد مناصـرة وبـكت لأجلـه، وقـد فقـدت من أحفادهـا: خليـل ومحمـد وحـمزة، ومن أبنـاء أختهـا: وائـل ووسيـم

وطارق، وأختها فايزة وعشرة آخرين من الأطفال وأمهاتهم.

الجنوب: قبالة موقف والدتكم الكريمة، والكثيرين مثلها، من تحرير الأسرى على يد المقاومة عبر صفقات التبادل (سواء بعد وقف إطلاق النار المؤقت في تشرين الثاني/نوفمبر 2023 أو بعد وقف إطلاق النار الأطول في كانون الثاني/ يناير 2025)، علت أصوات تسخِّف من هذا الإنجاز التاريخي بتحرير الأسرى. بالتأكيد الخسائر الفادحة في غزة تحديداً، وفي عموم فلسطين وبخاصة في المخيمات، بعد بدء حرب الإبادة هي خسائر غير مسبوقة، ولا شيء يخفف من وقع هذه الخسائر والتضحيات في فلسطين وفي صفوف المقاومة الباسلة في العمق العربي في لبنان واليمن والعراق... لكن كيف تفسِّر وجود هذه الأصوات القادرة على التنكُّر لتسمية المنجز باسمه؟ هل تعتقد أن هذا يرجع إلى عدم تمييز الناس بين الانتقاد والنقد، أم أنَّ هذا نابع من هول وقع الخسارة على الناس، أم من الاستقطاب السياسي الحاد على الساحة الفلسطينية؟

فارس: تتشارك كل العوامل أعلاه في تصدُّر تلك الأصوات. البعض لا يستطيع تأجيل خصومته السياسية مع حركة "حماس"، والبعض الآخر من اللون النقيض، تعزِّيه المقاومة والتضحيات فيما هو غارق في وحل برامج العبث والهباء. وإلى جانب هؤلاء، هناك من ينتقدون سلوك المقاومة وطريقة توظيفها وليس فكرتها وفعلها الضروري ووجودها. هؤلاء يرون أن النسق الذي تمت فيه عملية "طوفان الأقصى" كان مغامرة وقفزة في حلقة من النار لم نكن محصَّنين من ارتداداتها، ولم يكن الظرف الدولي والإقليمي مؤاتياً لإنضاجها، وأن الفعل غير المحسوب في حالات المقاومة، ينعكس ضرراً يتجاوز إنجازه. عموماً، لكل انتقاد رائحته التي تفضح دوافع صاحبه، ولا أحد بالمجمل يستطيع أن يفرض فكرته على الآخر خصوصاً في غزة، لأننا جميعاً تشاركنا في دفع الثمن والضريبة من الدماء والأرزاق وطريقة العيش والحياة. ودعني اعترف، بأنني أمتلك كثيراً من الآراء والملاحظات على سلوك المقاومة وليس فكرتها، وقد وجدت ما وجده الإمام علي كرَّم الله وجهه: "ليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال حان وقته، وليس كل ما حان وقته حضر أهله."

الجنوب: بعد فقد عدد كبير من زملائك الصحافيين، والأقارب من أبناء الأخوات والعمومة، ورفاق الدرب، وعامة الناس من معارفك منذ بدء الحرب وحتى إجراء هذه الحوارية... واصلت عملك، وواسيت الناس، وأخفيت عن الوالدة والآخرين أخباراً قاسية عمَّن قضوا في أنحاء مختلفة من غزة. لكنك صمدت، وصبرت، وانتظرت عودة أبنائك وزوجتك من الجنوب بعد وقف إطلاق النار حينما أتيحت "العودة". هل كنت واثقاً من تحقق تلك اللحظة؟ وكيف كان اللقاء في غمرة العودة الأسطورية للنازحين إلى شمال قطاع غزة في كانون الثاني/ يناير 2025؟

فارس: كنت واثقاً دائماً بأن الفرج آتٍ وإن طال انتظاره، لكنني لم أكن دائماً على ذات صورة القوة التي قد أظهر بها. سأعترف أنني دخلت مراراً في نوبات إحباط واكتئاب حاد، جلست في رحاب الله وسألته عن الحكمة من كل هذا العذاب. صحيح أن أكثر تلك المشاعر كنت أخفيها في ركن سحيق في نفسي، لكنني، وفي كل لحظة طيش، كانت تصلني رسائل الله "واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا." أما العائلة، فكانت جرحي المفتوح دائماً، كنت أرى أولادي محمد ونور وشام في كل ضحية، أراقب

حسرات الآباء بعد أبنائهم، ينتفض جسمي فزعاً، لم أكن قوياً بالقدر الذي أظهره. يهزمني بكاء زوجتي حنين والأولاد دائماً، تكسرني توسلات أمي اليومية بأن أبقى حياً لأجلها إن كنت أحبها! العشرات من الجولات الميدانية الخطيرة لم أنشرها في مواقع التواصل الاجتماعي كي لا أسمع بكاء ابنتي نور ورجاءها بأن أحافظ على نفسي. نحن عائلة طبيعية وليست أسطورة خارقة، نحب الحياة، بل كنا قبل الحرب نعيش الحياة بـ "الطول والعرض." وقد جربنا جميعاً كيف يكون الفقد وصرنا نخشاه ونخافه. أما اللقاء، فكان النقيض الموضوعي المماثل لكل تلك الهواجس والكوابيس، كان لقاء ملحمياً، فقد كبَّرت الحرب أولادي، حين اعتذرت إليهم وقبَّلت رؤوسهم بأني لم أكن إلى جانبهم في أشد أوقات حاجتهم إليّ، أخبروني بأنهم فخورين جداً بي، وأن لومهم كان من دافع الخوف عليّ. لقد مسحت تلك الكلمات كل مشاعر التقصير وتأنيب الضمير الذي كنت أعيشها مع نفسي طوال 15 شهراً.

الجنوب: بعيداً عن طقوس الولولة والموضوعية والحياد والجرأة، أصدر "مركز تطوير الإعلام في جامعة بيرزيت" كتاب "الإبادة الصحفية" (2024)، وفيه توثيق لقصص استشهاد 125 صحافياً فلسطينياً في الحرب على غزة 2023-2024. واللافت في قصة الكتاب بدايةُ العمل عليه قبل اندلاع حرب الإبادة بأشهر لإجراء تحقيقات حول جرائم الاحتلال ضد الصحافيين، سواء بالاغتيال أو الإعاقة أو الملاحقة، فيما يتحول المحققون أنفسهم إلى شهداء. التقديم الموجز لهذا الكتاب المتحلل من البلاغة، إذ ليس هناك "أبلغ من فعل الشهيد"، ينبغي أن يكون جزءاً من أية مرافعة أثناء ملاحقة كيان الإبادة ومجرميه الكثر في محاكم العدل الغائب حتى إشعار آخر. بما أنه "علينا نحن أن نحرس ورد الشهداء"، كيف ترى جهود توثيق قصص استشهاد الصحافيين، "أبطال الحقيقة"، ضمن الجهود الأخرى لتوثيق قصص الشهداء من كافة فئات المجتمع الفلسطيني في غزة وعموم فلسطين؟

فارس: من المهم دائماً المحافظة على مسيرة الشهود حتى بعد استشهادهم، لأن إحياء السيرة يحافظ على بقاء المسلك والطريق الذي شقُّوه وقضوا على طريقه. التوثيق يحقق فكرة الحضور في مقابل الغياب والتغييب. وبمعزل عن العائد القانوني السريع من تلك المهمة، تضمن توثيق حكايات الصحافيين، الثمن الذي يدفعه الفلسطينيون في كل مواقعهم ووظائفهم على طريق استمرار المحافظة على بقاء الملحمة الفلسطينية، في مقابل المجهود الذي بذله كيان الاحتلال على طريق الاقتلاع والطمس.

الجنوب: صحيح أن آلة الدعاية الصهيونية والرسمية الغربية وبعض الرسمية العربية تفعل فعلها في شيطنة مقاومة غزة وأهلها. وهنا تغدو مقولة "التغطية مستمرة" تغطية على جرائم العدو. لكن قلوب الناس معلَّقة بغزة. أيُّ رسالة يمكن أن توجهها للزملاء الصحافيين والإعلاميين في فلسطين والبلاد العربية وعلى امتداد العالم لاجتراح "تغطية" من نوع آخر تنتصف للمكلومين والضحايا؟ وهل من رسالة لإعلام العدو ومجتمعه المعسكر بالكامل؟ وما هي أوجه المساندة التي يمكن الحديث عنها على مستوى الرواية تحديداً؟ وما هي المسؤوليات التي يتوجب على المؤسسات والاتحادات الفلسطينية والعربية والعالمية القيام بها؟

فارس: أن يكون الإنسان أولاً، بوصفه مركز الرسالة الصحافية ومحرِّكها، ومعنى ذلك أن يتقدم

ما يعيشه الناس من معاناة قتل وتشريد وتجويع ونزوح بوصفه متن الخبر لا هامشه. خلال المدة الأخيرة، أصبحت المعاناة التي يصنعها الاحتلال خبراً تابعاً لما يدور في السياسة. كل الوجع يتوه في زحام الحديث عن المقترحات والصفقات: يُقتل الأطفال ورجال الدفاع المدني والإسعاف في صبيحة يوم العيد تحت غلاف "ضغط تفاوض". ما يحدث هو غسل للجرائم بالحراك السياسي. ويعني الإنسان أولاً، أن تقدمه بأجمل الصور التي يحبها لنفسه، في حياته في عراك الحياة القاسية وحتى بعد استشهاده، وأن تحرره من الصورة النمطية المكررة للأشلاء والدماء، حيث تتطبع النفس البشرية مع الصور المتكررة، نعم تصبح الأشلاء والدماء روتيناً معتاداً.

وأمام ذلك، تصبح المسؤولية أكثر تعقيداً، وتكمن في صناعة الفرادة، الطابع الخاص والنوعي الذي تأخذه الحكايات المنفردة المتحررة من جور الإحصاء وقوائم الأرقام وسجلات الضحايا الباردة، لا شيء ينصف المكلومين أكثر من الحديث عن معاناتهم وأحلامهم، وعمن فقدوا بالشكل الذي يرتضونه لأنفسهم. وبهذه الطريقة، فنحن نحوِّل الأرقام إلى قصص حية، لا أرقام ولا محتوى، قصص تحفر نفسها عميقاً في ذهن المتلقي ووجدانه، وتحوِّله من خانة الاستهلاك إلى وضعية التفاعل والتحرك. كما أنه من المهم أن نتخلص في حديثنا عن الفعل المقاوم من ثنائيتي الهزيمة والانتصار، لأن الفلسطيني الكنعاني يعيش ملحمة لا صراعاً ومعركة، وانتصاره يتحقق بوجوده وفعله ورفضه واحتجاجه الدائم، وحراكه المستمر الرافض لاقتلاعه من أرضه وطمس قضيته. ومهم أن نتخلص من محاولات التنميط المستمرة للفلسطيني الغزاوي بوصفه بطلاً خارقاً منذوراً للموت، ليس مسموحاً له أن ينكسر أو يحزن أو يبكي أو يبصق في وجه قبح العالم. اتركوه مشتهياً للحياة، ناقماً على الموت. أليس اشتهاء الحياة العادية هو ما يدفع الإنسان المظلوم دائماً للتضحية بشبه الحياة المنقوصة التي يحياها؟

وبالإضافة إلى ما تقدم، سيكون من المجدي أن نعمل سوية على تخليد الإبادة بكل فصولها وممارساتها ومراحلها المستمرة. الإبادة هي وثيقة تاريخية حية ليس للإجرام "الإسرائيلي" فحسب، وإنما للفعل الفلسطيني المستمر الذي ينفي عنه مزاعم بيع البلاد والتفريط بها.

أما إعلام العدو الذي ثبت في حرب الإبادة هذه أنه كان يحصى على الصحافيين الفلسطينيين أنفاسهم، فقد أثبت الزملاء الفلسطينيون أنهم الأخلص لبلادهم. لقد قتل جيشكم منهم 208 زميل ، وأصاب أضعافهم، ولم يغادروا الميدان، واستطاعوا أن يجبروا الخلل الذي تركه منع الصحافة الأجنبية من الدخول إلى القطاع. إن رغبة جيشكم في أن تتمَّ الجريمة في الظلام وخلف الستائر السميكة تبدَّدت أمام انتمائنا المطلق للإنسان والأرض، وإن بلاداً يمتلك أبناؤها إصراراً كهذا في مواجهة موتكم، بعيدة كل البعد عن الضياع وروايتها لن تكون في موضع التهديد بالطمس.

ولزملائنا الفلسطينيين، لقد وضعنا العدو بجميع أطيافنا وتوزعنا المناطقي، من جباليا إلى طولكرم وجنين والعين... على مهداف واحد أمام القناص، وأرضنا في مواجهة كبّاش الـ "دي ناين D9"، وصورتنا أمام الزيف. العدو هو أصل المأساة الممتدة والمستمرة، التفتوا إليه دائماً كلما زادت حدة الاستقطاب السياسي واختلفنا فيما بيننا.

البقاء في غزة

الجنوب: في منتصف آذار 2025، عادت "إسرائيل" إلى الحرب بصورة أكثر توحشاً، واستشهد قرابة ألف شهيد في غزة في أول يومين فقط لاستئناف العمليات الإبادية . عاد هذا الكابوس الأكثر فظاعة في تاريخنا إلى غزة على الرغم من أن الإبادة قد تواصلت، بصور أخرى، حتى بعد الإعلان عن وقف إطلاق النار قبل أقل من شهرين. على وقع تبجُّح قيادة الولايات المتحدة الأمريكية، الشريكة الفعلية في الإبادة مع "إسرائيل"، بالبحث عن دول تستقبل أهل غزة بعد تهجيرهم، وانتقائية الضمير العالمي، وترهُّل الوضع العربي والفلسطيني... كيف يتعامل الناس اليوم مع إنذارات الإخلاء إلى المجهول؟ وفي هذه اللحظة العربية المريضة، واللحظة الفلسطينية التراجيدية، كيف تواصِل العمل، وكيف تقوى على الاستمرار في إيقاد شعلة الأمل وبثّ القناعة بحتمية الخلاص بين الناس؟

فارس: ما نتعرض له اليوم هو أشد مستويات التنكيل النفسي والمعنوي والجسدي. لقد عادت الحرب وعاد الجوع والحرمان في وقت لم يكد الأهالي العائدون من نزوح طويل وقاسٍ يفرغون من صناعة مكان يؤويهم من العدم. في شمال القطاع تعرفنا على غاز الطهي لأول مرة منذ 15 شهراً، تذوقنا اللحوم والفواكه، نمنا دون خوف، عشنا مستقرين في مكان واحد لخمسين يوماً متواصلة، وهذا رقم قياسي. عادت الإبادة بعدما ظن الكثير أنهم نجوا فعلاً: استعوَضوا الله على ما فقدوا، وحمدوه على ما تبقى. هذه الانتكاسة أكثر فتكاً من تواصل نسق الإبادة قبل وقف إطلاق النار في 19 كانون الثاني/ يناير 2025. على الصعيد الشخصي، اختلف الأمر عليَّ كثيراً. اليوم أنا مسؤول عن عائلة، وقد اضطررت للنزوح من منزلي الكائن في حي السلاطين. هل جربت أن تحزَّ الشفرة قدمك العارية في برد الشتاء؟ شيء يشبه انسلال الروح من الجسد... ذلك ما يرافقك وأنت تحزم أغراضك وتخرج مكرهاً من ما تبقى من بيتك. والعجز أن تطوف الأسواق باحثاً عن ما يكسرون به صيامهم، كل شيء اليوم أقسى مما مضى. هذا، وتضاعِف مخططات التهجير التي لن تتمَّ بكل تأكيد، حالةَ التيه والخوف من المستقبل. المشكلة في خطة الرئيس الأمريكي الجنونية، أنها فتحت شهية "إسرائيل" للتفنن في أساليب التنغيص التي من شأنها تحويل غزة إلى بيئة طاردة للحياة، وهذا شقاء سيطول. لكن المطمئن، أن ترويج العدو لأي خطة في غزة تحديداً يعني فشلها المضمون. نحن قوم مدمنون على النكاية والمجاكرة، وكان يمكن تمرير المخطط بخبث وذكاء عبر صناعة الظروف وتسهيل السفر، لكن هذه الأرض مباركة، هذا ما نقوله دائماً، لا نعزِّي به أنفسنا، بل نؤمن فيه تماماً ونعيش ترتيباته في كل هول.

الجنوب: على الرغم من الضرر الذي تلحقه سجالات النصر والهزيمة بالروح الجماعية الفلسطينية، أو ما تبقَّى منها وقد انتحل السجال صفات التشاتم، فقد أوصلت هذه الحرب التناقض بين المشروعين الفلسطينيين المتوازيين إلى حدِّه الأقصى: مشروع الوجود والبناء والتحرير الذي تقوده المقاومة، وتحمله ثقافة الفداء والرغبة في الانتصار، وتدخل به التاريخ؛ ومشروع "التمثيل" والهدم والتبعية الذي انتهت إليه الحركة الوطنية التقليدية (منظمة السلطة أو سلطة المنظمة)، وتروِّجه ثقافة استدخال الهزيمة والخذلان، والذي يسير بها إلى خارج التاريخ. ولكن ضراوة الاستقطاب السياسي، التي عطَّلت إمكانية كل فعل جماعي، تقترح أن هذا السجال ينبغي أن يكون محصوراً في الغزيين لأنهم من يدفعون الفاتورة الكبرى اليوم. كيف تنظر إلى ذلك؟

فارس: أكبر جريمة ارتكبها الفلسطيني في حق نفسه، هي الإمعان في تفتيت جسده والاقتتال في باحة المسلخ بينما الجزار يشحذ سكينه على الباب. العدو يرانا ضحايا مؤجلة، سواءً كنا صقوراً أو حمائم، يصف العدو سلطة لا سلطة لها على متر واحد من الضفة بأنها تهدد وجود دولة نووية تقاتل أعداءها بالذكاء الاصطناعي، ويعود إلى غزة كي يهدم ما تبقى فيها من أبنية ويقتل الأجنّة في بطون أمهاتهم. وإزاء الحرب المعلنة على وجود الفلسطيني، بل على أصله الكنعاني، أرانا عاجزين عن اجتراح صيغة موحدة للمواجهة، بالصوت العالي: الفلسطيني مهدد بالاقتلاع من جحر الديك حتى بيت حنينا. وحيال هذا التهديد الجماعي، سيغدو جدل النقاشات حول الأجدر في مناقشة الحلول وشكل المواجهة بالنظر إلى فاتورة العطاء والتضحيات، عبثاً مناطقياً أجوفَ لا معنى له. بيت القصيد أن تعبُر الرؤى تقسيمات المكان المشظَّى للمحافظة على بقاء الهوية الواحدة.

الجنوب: على الرغم من أن الطرح السابق يحظى بالكثير من الوجاهة، إلا إن تجريم خطاب نقد الهزيمة يستخدم على نحو غير أخلاقي كنوع من إسكات الأصوات المناصرة للمقاومة، والداعمة لمشروعها، على الرغم من الإدراك التام لفداحة الفاتورة الكبرى التي تدفعها غزة بالدرجة الأولى، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية بالدرجة الثانية، وأسرى السجون الصهيونية بالدرجة الثالثة... كيف يمكن تجاوز هذا الاستقطاب الكارثي، والحدُّ من جعل الاستئثار بالمظلومية والضحَوية وسيلة لإسكات الخصوم السياسيين، أو حتى المناصرين في البلاد العربية وعلى امتداد العالم؟

فارس: المشكلة الآن في التوقيت، نحن في غمرة ردود فعل وليس مواقف واعية. الغزاوي الذي يعيش الإبادة والخذلان المربَّع، وعاد للعيش في العصر الطباشيري، بينما تمضي عجلة الحياة في كل الكوكب دون أن تلتفت إليه، يقدِّم ردَّات فعل عنيفة تجاه "الآخر" وليس مواقف يبنى عليها. وأنا لا أقول "الآخر" في الضفة أو الداخل المحتل أو الشتات فقط، فسكان المناطق المهدمة تماماً يحملون ردود فعل حادة على الأحياء التي نجت من الخراب، والغزاوي الذي يعيش هذا القدر من الضغوط، يعيش حساسية عالية. و"إسرائيل" تريد الاستثمار في هذه الظروف من خلال تأجيل الاستجابة الإنسانية ومراكمة الضغوط المعيشية، واستدامة الإبادة. ورغم ذلك، لا أحد حتى من المضحِّين في غزة يمتلك تفويضاً حتى من جاره ليتحدث نيابة عنه. المواقف شخصية صرفة، والحل يكمن دائماً في التمرير الواعي لكل ما من شأنه صناعة التصنيفات والمفاضلات. من المهم أن يقفز خطاب النخب وأصحاب الرأي والمؤثرين عن التفاصيل، ويرفعون القضايا ذات الإجماع، ويركزون عند كل محك ومفترق طرق، على الجزَّار الذي يحزُّ سكينه لا على التفويض الذي يمنحه أكبر المعذبين قبل الموت الأخير.

الجنوب: في غمرة السجال السابق، ثمة لهجة تنكُّر، تبلغ في بعض الأحيان حدَّ الاستنكار، لفعل المقاومة... وفي زمن يعزُّ فيه فعل البطولة، شهدنا ولا نزال بطولات لم يسجِّل منها إلا القليل. كيف يمكن إنصاف ذاكرة الفداء التي دشَّنها المقاومون الفعليون على امتداد أكثر من سنة ونصف؟ من يروي حكاياتهم التي قادت إلى المشاهد التاريخية للعودة إلى شمال غزة وتحرير الأسرى؟ من يقول لهم: شكراً، في "اليوم التالي للحرب" حين تتوقف الحرب... ألمحتَ إلى ذلك أكثر من مرة في عملك على امتداد الحرب. حدثنا عن "اليوم التالي" في مخيلة المجرمين، و"اليوم التالي" في مخيلة الضحايا؟

فارس: من المهم أن أوضح جزئية مهمة، إن ردود الفعل الجماعية لا تتنكَّر لبطولة المقاومين في الميدان، بل تحفظ لهم صنيعهم الرجولي، ودفاعهم المستميت عن الحواري حتى النفس الأخير، وليس فينا من يناقش

في قداسة الفداء. الأزمة الجمعية تكمن في عدة جوانب، أهمها أننا شعب مؤطَّر سياسياً ومنقسم على نفسه، وقد آذت هذه الحرب حتى الطبقات التي كانت خارج إطار الاستقطاب السياسي، من التجار والأكاديميين والأطباء وأصحاب الشركات والاستثمارات التجارية الذين كانوا طوال سنوات الحروب بعيدين نوعاً ما عن دفع الضريبة بشكل مباشر. هذا الأذى الذي عمَّ وطمَّ، يدفع دائماً إلى طرح أسئلة عن الجدوى المباشرة والنتائج المادية الملموسة لأي فعل مقاوم. كما سيكون من الصعب أن تقنع غريماً سياسياً آذاه الانقسام مثلاً، أو تاجراً وصاحب مصلحة أعادته الحرب إلى الصفر مجدداً، بالعائد التراكمي لفكرة المقاومة، وبالجدوى المؤجَّلة التي قد تحصدها الأجيال القادمة من "طوفان الأقصى". وحتى هؤلاء جميعهم، لا ينتقصون من فعل شهيد ومقاوم، ويحفظون للأبطال صنيعهم الرجولي ويجمعون حول أن غزة كانت برجالها شوكة وليست لقمة سائغة، ويوجِّهون سهام العتب والشتائم أحياناً لطبقة السياسيين وصنَّاع القرار.

أما الأبطال، فإن مهمة تخليد أثرهم تقع على عاتق كل صاحب قلم وريشة وكاميرا ومنصة، وفي إنصافهم إنصاف لنا أمام التاريخ، لأن سيَرهم جميعاً هي "كرت أحمر" يرفعه الفلسطيني أمام محاولات التزوير والتعمية: لم نبغْ أرضنا، بل انتحرنا جماعياً في سبيل تحريرها على طريقة "اقتلوني ومالكاً أو اقتلوا مالكاً معي،" و لم نهاجر منها وقت التهجير، دافعنا عنها في وجه آلة الخراب والإبادة"... هذا ما يقوله إرث الأبطال والشهداء، ولأجل ذلك، نحتاج للقليل من الهدوء، لنستريح قليلاً من الركض في مضمار الأحداث التي لا تتوقف، كي نرفع اللثام عن وجوه الأبطال، ليعاد تصديرها وحقن الذاكرة الشفوية للأجيال القادمة بصنيعهم.

الجنوب: بدأنا التعريف بك بالمجدل وعسقلان، ونختتم بالمجدل وعسقلان. في ظل تواصل حرب الإبادة على كل ما هو حيّ في غزة، قد يبدو من ضروب العبث السؤال عن "أحلام الغزيين"... فحتى الأحلام تقصفها "إسرائيل" حين تقصف خيام النزوح وما تبقى من جدران غزة التي لا تزال قائمة. كيف كنتم تتذكَّرون المجدل وعسقلان من قبل وكيف تتذكَّرونها الآن؟ ورغم حلكة ظلام المشهد، هل لا زلت قادراً على التفكير في مشهد العودة إلى عسقلان... وزيارة مقام رأس الحسين؟

فارس: ربما أبدو حالماً لو قلت إني لا زلت أعيش العودة واقعاً وليس حلماً. ربما كنا نعتقد قبل طوفان الأقصى أنها أقرب، لأن جبروت "إسرائيل" وإجرامها وحصانتها الدولية لم تكن ماثلة أمامنا كما اتضح بعد الإبادة. لكن لا شيء مما حدث يمكن أن يغير اليقين الحتمي بالعودة. في ذروة زهو القوة، تظهر "إسرائيل" في تصريحات قادتها قدر اللايقين في البقاء أبداً على أرضنا، يبدو رئيس وزرائهم مسكوناً بهاجس الخطر الوجودي الذي يحيط ببقاء دولة نووية، وهي بحاجة لابتلاع كل المنطقة ودول الطوق لتأمين حدودها. فيما يدرك مستوطنوها، الذين رحل منهم أكثر من 100 ألف عكسياً منذ بداية الإبادة، أن هذه الدولة لم توجد لتبقى.. يمتلكون كل أسباب البقاء من قوة ونفوذ ودعم دولي، ويعيشون الريبة في داخلهم. ونحن في غزة نمتلك كل أسباب الزوال والاقتلاع، ونتعاطى مع التهجير بوصفه المهزلة. هذا التناقض بين صاحب الأرض وسارقها، سيبقى الفيصل وبيضة القبَّان أياً كانت الوقائع وموازين القوة.

ربما ما تغير على صعيدي الشخصي، هو أنني حرمت من قضاء ثلاث ساعات كل أسبوع عند أقرب نقطة من شاطئ عسقلان في أقصى شمال بيت لاهيا. كنت حينها أتنفس هواء المجدل، أعبئ به رئتي رفقة زوجتي وأولادي، وأحكي لهم عن نول العائلة ومكتبة الجد ويوم العودة القادم. تحوَّلت المنطقة إلى مساحة عازلة

تقتل دبابات العدو كل من يقترب منها، وذلك شأن الجسد. أما القلب والإيمان بزوال كل طاغية، فهي حركة التاريخ التي لا تجامل أحداً ولا تعطل عجلتها "الميركافاه". وعليه، فالعودة حتمية. أما مقام رأس الإمام الحسين، فسيدلُّني عليه قلبي، فلا حجارة بقيت ولا عاموداً مزخرفاً تعلوه عمامة خضراء. من سيعودون إلى المجدل يوماً ما، سيشعرون حين يمرُّون من مقام رأس السبط الشهيد بخفق قلوبهم، لأن ما يجمعهم به قرابة ونسب وملحمة واحدة. الكنعانيون هم بنو هاشم هذا الزمان، مظلومون نبلاء في زمان لا يشبههم، وحين يعودون، سيكونون ميراث النبوة المظلوم، الذي لا ينتهي التاريخ دون أن ينصفهم الله ويلمَّ شملهم ويجمع شعثهم ويعلي رايتهم... هذا وعد الله ولديّ يقين بذلك

سمير حرب، مدينة الدخان، 2023